المآذن الزيانية والمرينية في تلمسان

أ . بلحاج طرشاوي

أستاذ مشارك /جامعة تلمسان

المقدمة :

تعدّ المئذنة أحد أهم العناصر المعمارية التي ألحقت بعمارة المساجد ورغم الارتباط الوثيق بين الآذان والمسجد فإن المئذنة لم تظهر إلى الوجود عندما قام الرسول صلى الله غليه وسلم ببناء المسجد النبوي في المدينة، وكان بلال رضي الله عنه يؤذّن من مكان عال بجوار المسجد النبوي.

وبعد ظهورها الأول في مساجد الأمصار، عرفت عمارة المآذن تطورا وازدهارا منقطع النظير، فلقد صارت المئذنة عنصرا معماريا قائما بذاته ضمن الفنون المعمارية، فوجهت لها عناية كبيرة في التصميم والبناء وبلغ ارتفاعها العشرات من الأمتار، وزخرفت واجهاتها بزخرفة إسلامية بديعة ومتناسقة. وظهرت طرزا مختلفة من المآذن من مربّعة إلى ذاسطوانية ومضلّعة ومآذن ذات رؤوس متعددة. واختلفت طرزها باختلاف الأمصار وباختلاف الفترات السياسية.

وعرفت المآذن في المغرب الإسلامي عصرها الذهبي مع ظهور الموحدين ، فارتدت ثوبا زخرفيا أنيقا، وزاد علوها بشكل عجيب، وظهر هذا التحوّل لأوّل مرّة في مآذن الكتبية بمراكش وحسان بالرباط والجيرالدة بإشبيليا[1].

ولقد اختلف الآثاريون اختلافا كبيرا حول الأصل المعماري للمئذنة الإسلامية كما اختلفوا حول أول المآذن في بلاد الإسلام. فقال الكثير من المستشرقين أن أصل المآذن هي أبراج المعبد الوثني في دمشق، حيث كانت في أركان هذا المسجد أربعة أبراج فلما فتح المسلمون دمشق حولوا الكنيسة إلى مسجد وحولوا الأبراج إلى أربعة صوامع.

ويرى بعض المستشرقين أن أصل المئذنة هو تلك الزيغورات الموجودة في بلاد فارس.أمّا الآثاريون المسلمون فيرون أن المئذنة ابتكار إسلامي أصيل ولا ينكرون فكرة التأثر بالعمارة الإسلامية في بناء المآذن.

بعض المفاهيم حول المئذنة :

1. تعريف المئذنة: هي كلمة مشتقة من الفعل "أذّن" والأذان والأذين والتأذن النداء إلى الصلاة[2] وأذنت أكثرت الإعلام بالشيء قال تعالى: "وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر"[3]

والمئذنة اصطلاح إسلامي لم يظهر إلا بعد انتشار الإسلام في بلاد الشام ومصر.

2. تعريف الصومعة: الصومعة، الهضبة، وهي بيت النصارى، ومنار الراهب، سميت بذلك لدقة رأسها، قال سيبويه (... الصومعة من الأصمع يعني المحدد الطرف المنضم)[4]. قال تعالى: "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا"[5].

ويشيع استعمال كلمة الصومعة في بلاد المغرب.

3. تعريف المنارة: المنارة، والأصل المَنَوِّرَة، وهي موضع النور، والمنارة الشمعة ذات السراج[6] قال امرؤ القيس.

تضيء الظلام بالعشاء كأنها *** منارة ممسي راهــب متبتل[7]

والمنارة هي المسرجة، ويحتمل أن يراد بها الصومعة لأنه يوقد في أعلاها النار للطارق.

المآذن الإسلامية الأولى :

ذكر المؤرخون عدّة روايات حول أول المآذن في الإسلام، وسنحاول أن نوجزها في هذه المقالة.

1 - رواية البلاذري (ت، 245 هـ): يذكر البلاذري أن أوّل مئذنة بنيت كانت في عهد الوالي الأموي زياد بن أبيه عامل معاوية على البصرة عام (45 هـ) الموافق لـ 665 م وبناها بالحجارة[8].

2 رواية المقريزي (ت، 825 هـ): وقد ذكر ما نصه وهو يتحدث عن الزيادات التي أحدثها مسلمة بن مخلد في مسجد الفسطاط "وزاد فيه مسلمة من بحريه ولم يحدث فيه حدثا من القبلي ولا من الغربي وذلك في سنة ثلاث وخمسين (53 هـ) ... وأمر ببناء منار المساجد التي في الفسطاط ..."[9].

ونفس الرواية يؤكدها ابن عبد الحكم[10] (ت، 257هـ) وابن دقماق (ت، 790 هـ).[11]

3 - رواية المسعودي (ت، 332 هـ) ويرى المسعودي أن أول المآذن هي تلك التي بنيت على آثار الأبراج الوثنية في المسجد الأموي بدمشق وقد أمر ببناء هذا المسجد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك[12].

يظهر من خلال هذه الروايات التباعد الزمني بينها، فالرواية الأولى وهي رواية البلاذري تنص على أن أول المآذن كانت سنتي 45 هـ و53 هـ بالنسبة لمنارة الفسطاط والبصرة على التوالي. وهي الرواية التي نرجحها باعتبارها متقدمة على روايتي المسعودي التي تنص على أن أول المنارات بنيت سنة 87 هـ في المسجد الأموي. أما المستشرقون فيشككون في رواية البلاذري ويرجحون عليها رواية المسعودي[13]، ولعل هذا الترجيح يعود إلى حرص المستشرقين إلى إلحاق كل عمل معماري إسلامي بعمارة الحضارات القديمة.

وعلى الرغم من اختلاف الروايات وتضاربها فإننا لا ننكر تأثر العمارة الإسلامية، والعمارة الفارسية والرومية، ولكن المعماري المسلم لم يقف عند هذا الحد، بل جاوزه إلى دور الإبداع والتطوير فسبق غيره في ذلك. والمئذنة من العناصر المعمارية التي أخذها العرب عن غيرهم وأبدعوا في تنسيقها وزخرفتها وابتكروا طرزا مختلفة تختلف باختلاف المناطق واختلاف الحكام ...

طراز المآذن الإسلامية :

1. المئذنة المربعة: ويرجع أصل هذه المئذنة كما رأينا إلى أبراج مآذن المسجد الأموي بدمشق (ينظر اللوحة رقم : 3) وأقدم نموذج من هذه المآذن هو مئذنة جامع القيروان (ينظر اللوحة رقم : 4) الذي بناه الصحابي الجليل عقبة بن نافع سنة 50 هـ/670 م[14] وهو الطراز الذي ساد في كل شمال إفريقيا بعد ذلك.

2. المآذن الحلزونية أو الملوية: وظهر هذا الطراز في مسجد سامراء (ينظر اللوحة رقم : 1) الذي أمر ببنائه الخليفة العباسي المتوكل* وهي متأثرة في شكلها العام بالزيغورات، وهي عبارة عن معابد كانت موجودة في إيران.

ويتم الارتقاء إلى هذه المئذنة عن طريق درج خارجي يلتف حول بدن المئذنة يضيق كلما صعدنا نحو الأعلى.

ونجد مثالا آخر لهذا النوع من المآذن في مصر في مسجد أحمد بن طولون.

3. المآذن الأسطوانية: وظهرت هذه المآذن أوّل مرّة في بلاد إيران، وهي عبارة عن مآذن شاهقة، وأسطوانية، ذات زخارف هندسية متنوعة من الطوب والقشاني، (ينظر اللوحة رقم : 2) وتنتهي في

* سنة 324 هـ/845 م.

أعلاها بشرفة تقوم على سلسلة من المقرصنات مما أكسبها شكل الفنار وعرف هذا الطراز تطوره مع الأتراك فقد شيدوا المآذن الطويلة والممشوقة منتهية بقمم مخروطية[15].

4. المآذن متعددة الرؤوس: وظهرت هذه المآذن في النصف الثاني من القرن 8هـ/14م سنة 762 هـ فلقد بنى السلطان الناصر حسن مئذنة مزدوجة الرأس لمدرسته بالقاهرة وما فتئت هذه المئذنة أن سقطت وأهلكت خلقا كثيرا فتوقف بناء هذه المنارات ثم شاع بناؤها بعد ذلك في أواخر القرن 9 هـ.

وأقدم هذه المآذن هي:

مئذنة قايتباي وتعود لسنة 908 هـ/1303م.

مئذنة الأشرف قانصوه الغوري وبنيت سنة 909 هـ/ 1500م ولها أربعة رؤوس.

مئذنة قايتباي الرماح بنيت سنة 911 هـ- 1506 م.

مئذنة الغوري 915 هـ - 1510 م[16]

وكل هذه المآذن موجودة في القاهرة.

وظائف المئذنة :

استعملت المآذن الإسلامية لوظائف كثيرة.

1. الأذان: وهي الوظيفة الأصلية التي من أجلها بنيت المآذن فهي مرتبطة بالأذان وهو الدعوة إلى الصلاة.

2. المراقبة: واستعملت المئذنة لمراقبة الأعداء وهذه الوظيفة تظهر جليا في مئذنة المنصورة فبفضل طريقها الصاعد ونوافذها الكبيرة يمكن للناظر أن يراقب الحركة لمسافات بعيدة، كما استعملت المآذن لهداية السبيل فهي منائر.

3. خلوات: كما استعملت المآذن كخلوات لرجال الدين وخاصة الصوفيةPمنهم فهي بهذا صوامع.

المآذن الزيانسية والمرينية :

تنتمي المآذن الزيانية والمرينية بصفة عامّة إلى طراز واحد وهو طراز المآذن ذات القاعدة والبدن المربع وهي تتألف من برجين:

أ – البرج الأول: وأطول هذه البرج هو برج مئذنة المنصورة، ولعل استعماله للمراقبة يعطي تفسيرا مقنعا لهذا الطول الشاهق، ويبلغ طوله حوالي 38 مترا.

أما باقي الأبراج فهي متقاربة نوعا ما باستثناء المآذن التي بنيت في فترة انحطاط الدولة الزيانية أو بنيت في فترات الحرب كمئذنة أبي الحسن والمشور وسيدي إبراهيم، فإنها ذات أبعاد متوسطة إذا قورنت بنظيرتها.

ب- البرج الثاني: ونسميه الجوسق وأبعاده أقل من البرج الرئيسي ويسمى "العزري" أو غرفة المؤذن، ولا تكاد مئذنة تخلوا من الجوسق باستثناء مئذنة المنصورة التي سقط جوسقها، وينتهي الجوسق بقبيبة صغيرة يعلوها عمود معدني، نثبت عليه تفاحتين أو ثلاثة ويتم الارتقاء في مئذنة المنصورة عن طريق طريق صاعد يلتف حول نواة مركزية مجوفة، وكان هذا الطريق الصاعد يسمح بصعود دابتين في آن واحد، أما باقي المآذن في تلمسان فيتم الصعود إليها عن طريق سلالم تلتف حول نواة مركزية مملوءة.

التواصل الفني و المعماري بين المآذن الزيانية والمرينية :

تمثّل مئذنة المنصورة (ينظر اللوحة رقم : 5) نموذجا فريدا لهذا النوع بين المآذن في كل المغرب الأوسط. فقد أمر ببنائها السلطان أبو يعقوب*، وهي متأثرة في شكلها العام وزخرفتها بالمآذن الموحدية وخاصة الجيرالدا والكتبية بمراكش وهي أطول مئذنة بالمغرب الإسلامي بعد مئذنة الكتبية بمراكش (ينظر اللوحة رقم ة: 9) وحسان بالرباط وتقوم هذه المئذنة فوق مدخل تذكاري، بحيث يعتبر جزءا لا يتجزأ منها وتعتبر زخرفة الباب جزءا من زخرفة المنار وقد زينت هذه الباب ببدخ بالأرابيسك المطلي بالمزاييك[17] . واستعمل المعماري المريني مثل المعماري الموحدي الطريق الصاعد Rampe لأنها تلائم الأبعاد الهامة التي اتخذتها المنارات الموحدية، ولأنها تمثل سهولة في ارتقائها من طرف المستعمل[18].

وزخرفت الواجهة الشمالية بثلاثة إطارات متراكبة superposé كل إطار يحتوي زخرفة مختلفة عن الآخر. ونجد في الواجهتان الجانبيتان نفس الإطارات التي رأيناها في الواجهة الجنوبية[19].

وحين أمر السلطان أبو الحسن يعقوب بن عبد الحق ببناء مسجد سيدي بومدين سنة 793هـ/1338م فإنه عدل عن نمط مئذنة المنصورة، وبنى مئذنة (ينظر الوحة رقم 8) أقرب ما يكون إلى المآذن الزيانية، فاختفى الطريق الصاعد الذي نجده في مئذنة المنصورة وحلّ محلها نظام السلالم. كما اختفت تلك النوافذ الكبيرة التي كانت تعطي أبعادا كبيرة للمراقبين لحركة الأعدادوعظها المعماري بنوافذ هي أشبه إلى المرامي (المزاغل) والتي لا تسمح إلا بمرور الضوء والهواء. كما عدل عن استعمال الحجارة المشذبة واستعمل عوضا عنها الآجر المشوي المستعمل في كل المآذن الزيانية، لتوفره في منطقة تلمسان.

وبالمقابل فإنّ المعماري المريني أبقى على زخرفة الواجهات، بالحشوات المملوءة بشبكة المعينات التي ظهرت في العمارة الموحدية. وأبدع الفنان المريني في زخرفة الإطار الذي يعلو شبكة المعينات فقام بزخرفته بزهريات

* أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق.

من فسيفساء الخزف Mosaique de faïence وكلّ زهرية تحتوي على 24 فرعا، تنخرط داخل مربع، وكل واجهة من الواجهات الأربعة زخرفت بثلاث زهريات كاملة محاطة بنصف زهريتنا تتواصل على الواجهات الأخرى[20].

ونجد نفس الزخرفة في مئذنة سيدي الحلوي* مع تغير طفيف، فقد زيد في عدد الزهريات من ثلاث إلا أربع زهريات كاملة في كل جهة. ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن جزئين هذه الزهريات عبارة عن ترميم قامت به الإدارة الفرنسية بعد سنة 1903. [21]

وتختلف هذه الزخرفة عن نظيرتها الزيانية في كون المعماري الزياني زخرف هذا الإطار برواق وهمي من العقود وضعت في إطار زخرف بفسيفساء الخزف.

ونجد في هذا الرواق خمسة عقود مفصصة في مئذنة أقادير** والجامع الكبير (ينظر اللوحة رقم 8) وثلاثة عقود مفصصة في مئذنة أي الحسن.

وأخذ الفنان الزياني عن الفنان المريني فكرة زخرفة الإطار الذي ينتهي به البرج الرئيسي، ولكنه عدل عن فكرة الزهريات واكتفى بزخرفة فراغات العقود بفسيفساء الخزف. ونلاحظ هذا التأثر في مسجد أبي الحسن* ونلاحظه أكثر في مسجد سيدي إبراهيم** (اللوحة رقم : 6) باعتبار أن هذا المسجد ومئذنته أخذ شكل وأبعاد المساجد المرينية فنجد أن كل بطون العقود والركنيات قد فرشت بالقيراطي*. كما زين الجوسق في مئذنة إلى الحسن بزخرفة أبعد ما تكون إلا زخرفة المآذن المرينية فقد زخرف غالب إطار الجوسق بفسيفساء الخزف بينما زخرف في المآذن المرينية بزهريات صغيرة تعم كل إطار الجوسق.

وتختلف زخرفة مئذنة مسجد المشور عن نمط الزخرفة التي ألفها الزيانيون والمرينيون، فقد اختفت كليا شبكة المعينات وحلت محلها زخرفة تقوم على أساس إطارات بعضها فوق بعضها تحتوي على عقود مختلفة الأنواع، زخرفت بواطنها وركنياتها بفسيفساء الخزف.

وتخلو المئذنة المرينية من الزخارف الكتابية باستثناء مئذنة المنصورة التي تمثل نموذجا نادرا للزخارف الكتابية في تلمسان.

أما المآذن الزيانية فلا نعثر على الكتابات إلا في الإكليل الذي يتوج جوسق مئذنتي الجامع الكبير وأبي الحسن. وفي الواجهة الجنوبية من مئذنة المشور[22].

---

*بناه أبو عنان فارس بن أبو الحسن سنة 754 هـ.
** بناه السلطان يغمراسن بن زيان عند بنائه منارة الجامع الكبير.
* بناه عثمان بن يغمراسن بن زيان سنة 696 هـ.
** بناه أبو حمو موسى الثاني حوالي سنة 763 هـ.
* القيراطي نوع من أنواع فسيفساء الخزف.

الهوامش

1 ابن منظور أبي الفضل، "لسان العرب" ، ط1، لبنان: دار صادر، بيروت 1986 ، مجلد 13، ص 208.

2 التوبة، الآية 03.

3 محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس، ط1، لبنان، منشورات دار مكتبة المياه، بيروت، 1306، المجلد 5، ص 434.

4 الحج، الآية 40.

5 محمد مرتضى الزبيدي، مصدر سابق ، ص 585.

6 أبو الحجاج يوسف، شرح ديوان امرئ القيس، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974، ص78.

7 أبو الحسن البلاذري، فتوح البلدان، لبنان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978 ، ص943.

8 أحمد بن أحمد المقريزي: "الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (لبنان: دار المعارف 1955)، مجلد 3، ص 191.

9 أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم، "فتوح مصر وأخبارها" (طبع في مدينة لندن 1920).

10 ابن دقماق إبراهيم بن محمد: "الانتصار في مواعظة الأمصار"، تحقيق لجنة التراث العربي، (لبنان، منشورات دار الآفاق) ص 65.

11 المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر (ط4، لبنان: دار الأندلس بيروت 140 /198، ج2، ج3، ص 251.

12 عبد الغني محمد بن عبد الله، " مآذن بعيدة عن المعمار"، مجلة العربي، العدد 507، فبراير 2003، ص 152.

13 أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العرب (ط2، لبنان، دار الفكر، 1977) ص 74.

14 أوقطاي أصلان أبا، ترجمة أحمد محمد عيسى "فنون الترك وعمائرهم" (ط1، استانبول، مطبعة رنكلر، 1987، ص 37-38.

15 د. محمد الششناوي "المنارات متعددة الرؤوس" "مجلة التراث" يصدر عن نادي تراث الإمارات سنة جويلية 2004 عدد 67، ص 52.

16 Bourouiba R., Apport d'Algérie à l'architecture religieuse arbo-islamique, OPU,Alger, 1986, p 285.

17 Bourouiba R., L'Art Musulman en Algérie, p 54.

18 يمكن مطاالعة هذا الموضوع في Bourouiba R., l'Art Musulman en Algérie p 271,

19 Bourouiba R., l'Art Musulman en Algérie, p 54.

20 Bourouiba R., opcit, p 273.

21 Georges et William Marçais : Les monuments arabes de Tlemcen, p 83.